الندوة الحوارية الموسعة الأولى:
"نحو مقاربات إسلامية للعلوم الإنسانية"

باريس 30 كانون ثاني (يناير) 2002

د. محمد المستيري

عقد المعهد العالمي للفكر الإسلامي / مكتب فرنسا في مقر المعهد الأوروبي للدراسات الإنسانية، لقاءً مع ثلة من النخبة المثقفة المسلمة بفرنسا، حول المقاربات الإسلامية للعلوم الإنسانية.

كان من بين المشاركين في هذا الحوار بعض الوجوه المعروفة في الساحة الإسلامية مثل د. أحمد جاء بالله عميد المعهد الأوروبي للدراسات الإنسانية، و د. عبد المجيد النجار المفكر والكاتب الإسلامي والمشرف على مركز البحوث والدراسات إحدى مؤسسات المعهد الأوروبي، والشيخ أنيس قرقاح أستاذ بنفس المعهد، والشيخ ضو مسكين مدير المعهد الأعلى للعلوم الإسلامية بباريس.

إن مثل هذا الموضوع -الذي قلما يطرح في لقاءات مضيقة- له علاقة بوجود المسلمين في أوروبا والغرب عموماً. وهو موضوع معقد، ويشمل إشكاليات عديدة من حيث علاقة التراث الإسلامي والفكر الإسلامي بالعلوم الإنسانية وثمرة الإنتاج العلمي البشري عموماً، والتي تدور حول التساؤلات التالية: أية إسلامية للعلوم الإنسانية؟ هل هي مسألة منهجية؟ أم هيَ أعمق من ذلك تتعلق بمحتويات هذه العلوم؟ وما هي الأسس الإسلامية في المجالات المتعددة: الاقتصاد والسياسة وعلم النفس والفلسفة والأخلاق...؟

في هذا الإطار، يشتغل المعهد العالمي للفكر الإسلامي على هذه الموضوعات منذ أكثر من عشرين عاماً، بهدف تجديد الفكر الإسلامي، حيث قام بتأسيس أطر لاحتضان الباحثين المسلمين في الولايات المتحدة وبريطانيا. أما في فرنسا، فلا توجد مثل هذه الأطر

حتى الآن، في حين هناك نسبة كبيرة من العقول المسلمة المهاجرة، حيث تقدر منظمة اليونسكو أن فرنسا تأتي في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث عدد هؤلاء.

إننا واعون بالتحديات التي تواجهنا، والحال أنّنا أمام صعوبات جمّة مثل عطالة الفكر الإسلامي والعالم الإسلامي عن الإنتاج، وضعف وزن المسلمين في العالم، وحداثة عهد الحضور الإسلامي في الغرب، بحيث ما تزال الجاليات المسلمة في مرحلة انتقالية من الهجرة إلى التوطين. ونحتاج إلى مسار خاص بنا باعتبارنا أقليات في هذه الديار. ونحن على الخط الأول في علاقة الإسلام بالغرب وشهداء على الحضارة الغربية.

وبقراءة للفكر الإسلامي المعاصر، نجد مقاربتين: الأولى نقدية تقصي العلوم الإنسانية بحجة أنها نتاج غربي، وأخرى تبريرية تقدّم براهين على ضرورة اعتماد هذه العلوم. ونحتاج إلى مقاربة جديدة ذات طابع إشكالي، تفهم الإشكاليات التي يثيرها الفكر الغربي، وليس المنهجية المعرفية الغربية فحسب.

إن التوصل إلى تحقيق التوجّه المعرفي الإسلامي، لا يكون إلا بتكوين إطار من الباحثين في العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، وممن يحملون الهم الإسلامي. من هنا تأتي أهمية هذا اللقاء الذي قد يتوّج بعد إنضاج الفكرة بتكوين رابطة تجمع بين هؤلاء الباحثين من أجل التحاور والبحث عن أقوم المسالك، لأنه لو بقي الباحث يعمل بصفة فردية قد لا ينجز شيئا في هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية التي يتضمنها محور اللقاء في حاجة إلى نقاش عميق ومراجعة. ذلك أن كلمة "مقاربات" و"علوم إنسانية"، تدل على تأثر بالفكر الغربي الذي يفصل بين العلوم "الصحيحة" والعلوم "الإنسانية"، في حين أن التصوّر الإسلامي لا يعرف هذا التصنيف في تناول العلوم، وله رؤيى شمولية في النظر إلى القضايا التي تهم الإنسان في علاقة تفاعل مع الكون والمحيط.

لقد سجل البعض تحفظات على مصطلح "إسلامية المعرفة"، بمعنى أسلمتها، لأنّ المعرفة ذات بعد إنساني وأسلمتها يعني فرض نمط معين من المعرفة التي لا يمكن حصرها في منظومة معرفية واحدة. في حين فهم آخرون هذا المصطلح على أنّه يعني تقديم منهج

إسلامي في التعامل مع المعارف والعلوم التي لا تعرف الحدود الجغرافية والدينية، وبالتالي الاستفادة من كل التجارب المعرفية الإنسانية بمعايير إسلامية.

تحاول العلوم الإنسانية اليوم تفسير الظواهر المتعلقة بالإنسان وببعد إنساني شامل يقبله الجميع. وقد طوّر الغرب هذه العلوم واحتل الصدارة فيها. ثم إنه توجد مناهج غربية مهيمنة ولكنها اليوم محلّ نقد من حيث نجاعتها. حيث توجد بعض الثغرات مثل عدم دراسة الإنسان من كل جوانبه المعقدّة. ومثال على ذلك في المجال الإثني والسيكولوجي، حيث لا يمكن تناول نفسية الأوروبي والإفريقي بنفس الأدوات، كما يلاحظ تغيّر كبير في المنهج الفلسفي بين الماضي والحاضر، حيث إن الفيلسوف سابقاً لم يكن بإمكانه أن يكون فيلسوفاً إذا لم يبدأ التفكير في الألوهية والخلق. وقد برز علماء وفلاسفة مسلمون من أمثال الفارابي وابن رشد والغزالي والرازي الذين قاموا بنقل المعارف اليونانية والإغريقية إلى المسلمين دون أن يتم القدح في إسلامهم. أما اليوم، فهناك معطى جديد يتمثل في إزاحة موضوع الإيمان والألوهية جانباً، والتركيز على الإنسان وعقله وعلى الأخلاقية اللائكية (العلمانية). فما هي المنهجية التي يجب اعتمادها؟ من هنا تأتي الحاجة إلى القدرة الإبداعية لدى المسلمين في استنباط منهجية، علماً بأنّ عملية الاستنباط أهم بكثير من المنهجية في حدّ ذاتها.

إن إنسانية الإسلام جعلته ينفتح على التجارب البشرية ويستفيد منها وينمّي الإيجابي منها، حيث لم يقترن مجيء الإسلام بالقضاء على كل ما شهدته البشرية من عادات وتجارب. ومقاصد الشريعة المبنية على قواعد تأصيلية محكمة مثل "جلب المصالح ودرء المفاسد" ساعدت كثيراً على الحفاظ على التجديد الإسلامي، بما توفّره من مرونة في فهم الواقع والتفاعل معه. وهذا الأمر يدعونا إلى التفكير في مقاييس الاختيار والانتقاء من الآخر وفهم معادلة التأثّر والتأثير، خاصة وأن المثقفين المسلمين يعيشون في بيئة غربية لها خصوصياتها الثقافية والفكرية المتأثرة بالفكر الديكارتي، وفي ظرف ما بعد الحداثة وما يسمى بالعولمة. ومسؤوليتنا أكبر في رفع التحدي لتقديم المنهج الإسلامي المعرفي باعتبارنا نعايش الواقع الغربي وننهل من مصادره المعرفية بصفة مباشرة. فقبل الغوص في الإشكالية التي يدور حولها هذا اللقاء، من الجدير المشاركة في الحوار الحالي حول أزمة العلوم الإنسانية المعاصرة، ثم تشكيل موقف مبدئي ومتوازن فيما يتعلق بالحركة الناشئة الناقدة

لهذه العلوم. ونحتاج إلى التفكير فيما يمكن أن يقدمه الباحثون المسلمون من عطاء أصيل وبمنهجية أصيلة بعيداً عن التلفيق والترقيع.

هل المنهج مفقود فنوجده أم هو موجود فنطوّره؟ ركام من الإنتاجات النظرية لمست جوانب حسّاسة في الفكر الإسلامي. وهناك خطان ناظمان وقع انفصال بينهما: خط المنهج أو الفكر، وخط التدبير. ومطلوب من المقاربة الإسلامية أن تزاوج بينهما. وهل نريد التطوير في تمازج بين الخطين أم نطرح إشكالات من خلال النص؟ إن الإشكاليات المطروحة مهمّة ولكن الوسائل أو المناهج ضعيفة مقارنة بالأهداف التي نصبو إليها. وهناك مسألة تحديد الجانب الكمّي والجانب الكيفي في المنهجية. ولنا أن نتساءل: هل يتصف المسلمون اليوم بطول النفس من أجل تحقيق أهدافهم؟ إذ من السهل طرح مشروعات كبرى ولكن ما مدى القدرة على إنجازها؟ لذلك يجب وضع هذا اللقاء في إطاره الزماني والمكاني حتى تتم الاستفادة من الطاقات الإسلامية المعطّلة. ويلاحظ أن الجالية المسلمة في الغرب لديها كفاءات ولكن ينقصها الاتصال والتعارف فيما بينها لذا يجب تجميع هذه الكفاءات.